سـورة القمر

هى مكية إلا قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » فمدنية .

وعدة آيها خمس وخمسون نزلت بعد الطارق .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) مشاكلة آخر السورة السابقة لأول هذه فقد قال هناك : أزفت الآزفة ، وقال هنا : اقتربت الساعة .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هـذه قد فصلت ماجاء فى سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التى كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكهم الذى أشار إليه فى السابقة بقوله: « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى » فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) .

شرح المفردات

اقتربت : أى دنت وقربت ، وانشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين ، آية : أى دليلا على نبوتك ، مستمر : أى مطرد دائم ، أهواءهم : أى مازينه لهم الشيطان من الوساوس والأوهام ، مستقر : أى منتهٍ إلى غاية يستقر عليها لامحالة ، الأنباء أخبار القرون الماضية وما حاق بهم من العذاب جزاء تكذيبهم للرسل ، واحدها نبأ ، بالغة : أى واصلة غاية الإحكام والإبداع ، تغن : أى تفيد وتنفع ، والنذر : واحدهم نذير بمعنى منذر ، فتولّ عنهم : أى لاتجادلهم ولا تحاجهم ، نكر : أى أمر تنكره النفوس إذ لاعهد لها بمثله ، خشعا : واحدهم خاشع : أى ذليل والأجداث : القبور ، مهطعين : أى مسرعين إليه منقادين ، عسر : أى صعب شديد الهول .

المعنى الجملى

يخبر سبحانه باقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها وأن الأجرام العلوية يختل نظامها على نحو ماجاء فى قوله : «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ» روى أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا سَفٌّ يسير ، فقال: والذى نفسى بيده مابقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وروى أحمد عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بُعِثْتُ أنا والساعةَ هكذا ، وأشار بإصبعيه السبَّابة والوسطى » .

ثم ذكر أن الكافرين كلما رأوا علامة من علامات نبوتك أعرضوا وكذبوا بها وقالوا إن هذا إلا سحر منك يتلو بعضه بعضا ؛ ثم أخبر أن أمرهم سينتهى بعد حين

وسيستقر أمرك ، وسينصرك الله عليهم نصرا مؤزرا ، ثم أعقب هذا بأن عبر الماضين وإهلاك الله لهم بعد تكذيبهم أنبياءهم كانت جد كافية لهم لو أن لهم عقولا يفكرون بها فيما هم قادمون عليه ، ولكن أنى تغنى الآيات والنذر عن قوم قد أضلهم الله على علم وختم على قلوبهم وجعل على سمعهم و بصرهم غشاوة ؟ . ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم ، وسيخرجون من قبورهم أذلاء ناكسى الرءوس مسرعين إلى إجابة الداعى يقول الكافرون منهم هذا يوم شديد حسابه ، عسر عقابه .

الإيضاح

(اقتربت الساعة) أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة ، وقرب انتهاء الدنيا وهذا كقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » .

(وانشق القمر) أى وسينشق القمر و ينفصل بعضه من بعض حين يختل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض ، ونحو هـذا قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » وكثير غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التى تكون حين خراب هـذا العالم وقرب قيام الساعة .

و يرى جمع من المفسرين أن هذا حدث قد حصل ، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء (جبل بمكة) بينهما ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود : «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة على الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا» .

وجاء عنه أيضا : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش: هذا سحر ابن أبى كبشة . فقال رجل انتظروا مايأتيكم به السُّفَّار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس ، فجاء السفار فأخبروهم بذلك، رواه أبو داود والطيالسى» وفى رواية البيهقى « فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا رأيناه ، فأنزل الله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر » .

والذى يدل على أن هذا إخبار عن حدَث مستقبل لاعن انشقاقٍ ماضٍ ـ أمور :

(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجىء الساعة ، والظاهر تجانس الخبرين وأنهما خبران عن مستقبل لاعن ماض .

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التى لو حصلت لرآها من الناس من لايحصى كثرة من العرب وغيرهم ، ولبلغ حدا لايمكن أحدا أن ينكره، وصار من المحسوسات التى لاتدفع ، ولصار من المعجزات التى لايسع مسلما ولا غيره إنكارُها .

(٣) ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شذ أن هذه معجزة بلغت حد التواتر ، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحادا ، بل كانوا لايعدّون كثرة .

(٤) إن حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابى الجليل خطب الناس يوم الجمعة فى المدائن حين فتح فارس فقال : ألا إن الله تبارك وتعالى يقول : اقتربت الساعة وانشق القمر ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة ، فهذا الكلام من حذيفة فى معرض قرب مجىء الساعة وتوقع أحداثها ، لافى كلام عن أحداث قد حصلت تأييدا للرسول وإثباتا لنبوته ، لأن ذلك كان فى معرض العظة والاعتبار .

وبعد أن ذكر قرب مجىء الساعة وكان ذلك مما يستدعى انتباههم من غفلتهم ، والتفكير فى مصيرهم، والنظر فيما جاءهم به من الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته، والمؤيدة

لصدقه ، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعى لهم إلى الرشاد ، والهادى لهم إلى سواء السبيل ، بل أعرضوا وتولوا مستكبرين كما قال :

(وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أى وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك ، وترشدهم إلى صدق ماجئت به من عند ربك ، يعرضوا عنها ويولوا مكذبين بها منكرين أن يكون ذلك حقا ، ويقولوا تكذيبا منهم بها : هذا سحر سحرنا به محمد ، وهو يفعل ذلك على مرّ الأيام .

وفى هذا إيماء إلى ترداف الآيات ، وتتابع المعجزات .

وقال الكسائى والفرّاء واختاره النحاس : إن المراد بالمستمر الذاهب الزائل عن قرب ، إذ هم قد علّلوا أنفسهم ومنّوها بالأمانى الفارغة ، وكأنهم قالوا : إن حاله عليه السلام وما ظهر من معجزاته إن هى إلا سحابة صيف عن قريب تقشع ، ولكن أنّيهات أنيهات ، فقد غرّتهم الأمانى (وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أى وكذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به أهواؤهم ، لجهلهم وسُخْف عقولهم .

والخلاصة — إنهم كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم وتركوا حججه وقالوا : هو كاهن يقول عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال ، وساحر يسترهب الناس بسحره ، إلى أشباه هذا من مقالاتهم التى تدل على العناد وعدم قبول الحق .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(وكل أمر مستقر) أى وكل شىء ينتهى إلى غاية تشاكله ، فأمرهم سينتهى إلى الخذلان والعذاب الدائم فى الآخرة ، وأمرك سينتهى إلى النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

وهذه قاعدة عامة تنضوى تحتها حركات الكواكب والأفلاك ونظم العمران وأعمال الأفراد والأمم .

وقصارى ذلك — إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم سيصل إلى غاية يتبين عندها أنه الحق ، وأن ما سواه هو الباطل ، وقد جرت سنة الله بأن الحق يثبت ، والباطل يزهق بحسب ما وضعه فى نظم الخليقة (البقاء للأصلح) .

ثم ذكر أنهم فى ضلال بعيد ، فإن ما جاء فى القرآن من أخبار الماضين قد كان فيه مزدجر لهم لو كانوا يعقلون ، قال :

(ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) أى ولقد جاء هؤلاء المشركين الذين كذبوا بك واتبعوا أهواءهم — من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل فأحل الله بهم من العقوبات ما قصه فى كتابه — ما يردعهم و يزجرهم عما هم فيه من القبائح ، إذ أبادهم فى الدنيا وسيعذبهم يوم الدين جزاء وفاقا لما دنسوا به أنفسهم من الشرك بربهم وعصيان رسله ، واجتراحهم للسيئات .

ثم بين الذى جاءهم به فقال :

(حكمة بالغة) أى هذه الأنباء غاية الحكمة فى الهداية والإرشاد إلى طريق الحق لمن اتبع عقله وعصى هواه .

(فما تغن النذر) أى إن النذر لم يبعثوا ليلجئوا الناس إلى قبول الحق ، و إنما أرسلوا مبلغين فحسب ؛ فليس عليك ولا على الأنبياء قبلك الإغناء والإلجاء إلى اتباع سبيل الهدى ، فإذا بلّغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها فى نحو قوله « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وتول عنهم بعدئذ .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » .

ثم أمر رسوله ألا يجادلهم ولا يناظرهم فإن ذلك لا يجدى نفعا فقال :

(فتول عنهم) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين المكذبين ولا تحاجهم ،

فإنهم قد بلغوا حدا لايقنعون معه بحجة ولا برهان ، فأحرى بك ألا تلتفت إلى نصحهم و إرشادهم ، فقد عييت بأمرهم ، و برَمْتَ بعنادهم .

(يوم يدعو الداع إلى شيء نكر) أى واذكر حين ينادى الداعى إلى شئ فظيع تنكره نفوسهم ، إذ لاعهد لها بمثله ، وهو موقف الحساب وما فيه من أهوال .

وقد جرت العادة أن من ينصح شخصا لايؤثر فيه النصح أن يعرض عنه و يقول لسواه ما فيه نصح للمعرَض عنه ، وهدايته و إرشاده لو أراد .

ثم ذكر حال الكافرين فى هذا اليوم فقال :

(خشّعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) أى يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون ، كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ـ جراد قد انتشر فى الآفاق .

وجاء تشبيههم فى الآية الأخرى بالفراش فى قوله « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » .

وهم يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعين لايهتدون أين يتوجهون ، لأن الفراش لاجهة لها تقصدها ، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا للحشر ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكى بن أبى طالب .

(مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) أى مسرعين إلى الداعى لايخالفون ولا يتأخرون ، ويقولون هذا يوم شديد الهول سيىء المنقلب .

ونحو الآية قوله : « فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لاعسر فيه ولا مشقة .

قصص بعض الأنبياء مع أممهم

(١) قصص قوم نوح

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) .

شرح المفردات

وازدجر : أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف ، فانتصر : أى فانتقم لى منهم ، منهمر : أى كثير كما قال :

أعينى جودا بالدموع الهوامرِ على خير بادٍ من مَعَدٍّ وحاضر

فالتقى الماء : أى ماء السماء وماء الأرض ، على أمر : أى على حال ، قد قدر : أى قد قدّره الله فى الأزل ، ذات ألواح : أى ذات خُشُب عريضة ، دسر : أى مسامير واحدها دسار ككتب وكتاب ، بأعيننا : أى بمرأى منا والمراد بحراستنا وحفظنا ، كفر : أى جحد به وهو نوح عليه السلام ، تركناها : أى أبقينا السفينة ، آية : أى علامة ودليلا ، مدكر : أى متذكر ومعتبر ، ونذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ، يسرنا : أى سهلنا ، للذكر : أى للعظة والاعتبار ، مدكر : أى متعظ بمواعظه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لهم لو تذكروا لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئا — أردف هذا بذكر قصص من قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود ، ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع فى الأمم ، بل كثير منهم فعلوا فعلهم بل كانوا أشد منهم عتوا واستكبارا ، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت ، فلا تأس على ما فرط منهم ولا تبتئس بما كانوا يفعلون كما جاء فى قوله سبحانه : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

وفى هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم ، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم فسيحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم ، وينجى نبيه والمؤمنين كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمه التى أحلها بأممهم .

الإيضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذب قبل قومك قومُ نوح فكانوا أسوة لمن بعدهم من المكذبين للرسل .

ثم فصل هذا التكذيب بقوله :

(فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) أى فكذبوا عبدنا نوحا ونسبوه إلى الجنون ، وزجروه وتوعدوه لئن لم ينته ليكونن من المرجومين .

وأضاف العبد إليه فى قوله « عَبْدَنَا » للإشارة إلى أنه لم يعبد سواه ، فهو فى جميع أفعاله لله ؛ وإلى أنه صادق فى دعواه النبوة ، فهو لا ينطق عن الهوى ، فتكذيبهم له قبيح غاية القبح ، بالغ نهاية العتوّ والإنكار .

ثم بين أنه عيل بهم صبرا ، وضاق بهم ذرعا فدعا عليهم فقال :

(فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) أى فدعا نوح ربه قائلا إن قومى قد غلبونى تمردا وعتوا ولا طاقة لى بهم ، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك .

وقصارى ذلك — انتصر لك ولدينك ، فإنى قد غلبت وعجزت عن الانتصار لهما .

ثم أخبر سبحانه أنه قد أجاب دعاءه فقال :

(ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) أى فصببنا عليهم ماء ثجاجا من السماء ، وتقول العرب فى المطر الوابل : جرت ميازيب السماء . روى أنهم طلبوا المطر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا .

وفى الآية إيماء إلى أن الله انتصر منهم ، وانتقم بماء لا يجند أنزله .

(وفجرنا الأرض عيونا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة .

(فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى فالتقى الماء أى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله وهو هلاكهم بالطوفان .

والخلاصة — إن الله أرسل ماء السحاب مدرارا ، وأخرج من الأرض ماء ثجاجا ، فالتقى الماءان فأحدثا طوفانا على وجه الأرض ، فأغرق به قوم نوح ، ونجا نوح بركوب سفينته التى بناها كما أشار إلى ذلك فى هود بالتفصيل وأشار إليه هنا بقوله :

(وحملناه على ذات ألواح ودسر) أى وأنقذناه من الطوفان فحملناه على سفينة ذات خشب ومسامير .

وجاء فى سورة العنكبوت « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب السنن التى وضعها فى الخليقة ، وأنه يمهل الظالمين ، ولا يهملهم كما جاء فى الحديث « إن ربك لا يهمل ولكن يمهل وتلا قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ) » .

ثم أشار إلى أنه كان محروساً بعناية الله وكلاءته فقال :

(تجرى بأعيننا) أى تجرى محفوظة بحراستنا ، فقد كانت بمرأى منا نتعهدها ونرعاها ، كما يرعى المرء ما يراه بعينه ، ويقع تحت سمعه وبصره ،

ويقول القائل إذا وصى آخر على أمر وشدد عليه : اجعله نُصْب عينيك أى اهتم به ولا تهمله .

ثم بين أن هذا هو الجزاء العادل على سوء صنيعهم ، وكفرهم بربهم فقال :

(جزاء لمن كان كفر) أى فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا ، وجحودهم بنعائنا ، وتكذيبهم برسولنا .

ثم ذكر أنه أبقى السفينة عبرة لمن بعدهم على كر الدهور والأعوام فقال :

(ولقد تركناها آية) أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحا ومن معه — عبرة لمن بعده من الأمم ، ليدّبروا ويتعظوا ويرعووا أن يسلكوا مسلكهم وينهجوا نهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة ؛ وقد رووا أن الله حفظها آمادا طويلة بأرض الجزيرة على جبل الجودىّ . وقال قتادة أبقاها الله بباقِرْدَى من أرض الجزيرة حتى أدركتها أوائل هذه الأمة .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » .

(فهل من مدّكر ؟) أى فهل من معتبر بتلك الآية الحَرِية بالاعتبار ، الجديرة بطويل التفكير والتأمل فى عواقب المكذبين برسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ، المتخذين له الأنداد والأوثان .

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر ؟) أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ، وما أفظع إنذارى لهم بما أحللته بهم من النقمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد ، وعظيم التهديد ، لكل باغ عنيد ، ساخط على الرسل ، مكذب بربه .

والخلاصة — انظر كيف كان عذابى لمن كفر بى ، وكذب رسلى ، وكيف انتصرت لهم ، وأخذت أعداءهم بما يستحقون ؟ .

ثم ذكر أن هذا القصص وأمثاله إنما ذكر فى القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصا تاريخيا يتلى فقال :

(ولقد يسرنا القرآن للذكر) أى ولقد سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه ، وملأناه بأنواع العبر والمواعظ ، ليتعظ به من شاء ، ويتدبر من أراد « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ونحو الآية قوله : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » وقوله : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل .

(فهل من مدّكر) أى فهل من متعظ به ، مزدجر عن معاصيه ، أى ما أقل من تذكر به ، واتعظ بأمره ونهيه .

(٢) قصص عاد قوم هود

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) .

شرح المفردات

الريح الصرصر : الباردة أشد البرد ، والنحس : الشؤم ، منقعر : أى مقتلع من أصوله ؛ يقال قعرت النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص قوم نوح وما فيه من العبرة لمن تدبر وفكر ، أعقبه بقصص عاد قوم هود ، ليبين للمكذبين أن عاقبة كل مكذب الهلاك والبوار وإن تعددت أسبابه .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

فقد أرسل الله عليهم ريحا عاصفا ، لصوتها صرير حين هبوطها فى يوم شؤم عليهم ، واستمر بهم البلاء حتى حل بهم الدمار ، وكانت الريح لشدتها تقتلع الناس من الأرض وترفعهم إلى السماء ثم ترمى بهم على رءوسهم ، فتندق رقابهم ، وتبين من أجسامهم ، فانظروا أيها المكذبون إلى ما حل بهم من العذاب جزاء تكذيبهم لرسوله ، كما هى سنة الله فى أمثالهم من المكذبين .

الإيضاح

(كذبت عاد) أى كذبت عاد نبيهم هودا فيما أتاهم به عن الله ، كما كذبت قوم نوح من قبلهم نبيهم .

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابى إياهم وعقابى لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هودا ، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى الغى والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به .

وفى هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء لما يلقى إليهم قبل ذكره ،

وتعجيب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فاسمعوا كيف كان عذابى وإنذارى لهم .

ثم فصل ما أجمله أولا فقال :

(إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) أى إنا بعثنا إلى عاد إذ تمادوا فى طغيانهم وكفرهم بربهم ريحا شديدة العصوف فى برد ، فصوتها صرير فى زمن شؤم ونحس عليهم ، إذ ما زالت مستمرة حتى أهلكتهم .

ونحو الآية قوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » وقوله : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة. وما روى من شؤم بعض الأيام فلا يصح شىء منه ، فالأيام كلها لله ، لاضرر فيها لذاتها ، ولا محذور منها ، ولا سعد فيها ولا نحس ، فما من يوم يمر إلا وهو سعد على قوم ونحس على آخرين باعتبار ما يحدثه الله فيه من الخير والشر لهم ، فكل منها يتصف بالأمرين

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

وتخصيص كل يوم بعمل كما يزعم بعض الناس وينسبون فى ذلك أبياتا لعلى كرم الله وجهه ، لايصح منه شىء ، وإنما هو نزغات شيعية لاتستند إلى ركن من الدين ركين .

(تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) أى تقتلعهم حتى يصيروا كأنهم أعجاز نخل قد انقلع من مغارسه فى الأرض .

وفى الآية إيماء إلى أن الريح كانت تقتلع رءوسهم فتبقى الأجسام ولا رءوس لها ، وإلى أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال كالنخل ، وإلى أنهم أعملوا أرجلهم فى الأرض وقصدوا بذلك مقاومة الريح ، وإلى أن الريح جعلتهم كأنهم خشب يابسة لشدة بردها .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانهما فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا كيف كان عذابى وإنذارى ،

وقد كرره تعظيما لشأنه ، وهذه سنة فى بليغ الكلام ، فى باب النصح والإرشاد ، وباب التهديد والوعيد ، وقد يكون الأول إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثانى إلى عذاب الآخرة كما جاء فى قصصهم فى آية أخرى « لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) الكلام فيه كسابقه فلا نعيده .

---

(٣) قصص ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) .

شرح المفردات

بالنذر : أى بالرسل ، وتكذيب صالح تكذيب لهم جميعا لاتفاقهم جميعا على أصول الشرائع ، والسعر : أى الجنون؛ ومنه ناقة مسعورة : إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة ، والذكر : الوحى ؛ والمراد بالغد وقت نزول العذاب بهم ، والأشر شديد البطر ؛ والبطر: دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ،

فتنة : أى امتحانا واختبارا ، فارتقبهم: أى فانتظرهم ، واصطبر: أى واصبر على أذاهم، والشِّرْب : النصيب ، محتضر : أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى ، صاحبهم: هو قُدار بن سالف أحَيْمِر ثمود ، فتعاطى : أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث به ، فعقر : أى فضرب قوائم الناقة بالسيف ، صيحة واحدة: هى صيحة صاحها جبريل عليه السلام ، والهشيم : ما تهشم وتفتت من الشجر، والمحتظِر : الذى يعمل الحظيرة فيتساقط منه بعض أجزاء وتتفتت حال العمل .

المعنى الجملى

قص الله علينا قصص ثمود مع نبيها صالح ، إذ قالوا : أنحن العدد الجمّ ، والكثرة الساحقة ، نتبع واحدا منا لا امتياز له عنا ؟ إنا إذا فعلنا ذلك لفى ضلال وبعد عن محجة الصواب ، وإنه لكاذب فيما يدعيه من الوحى عن ربه ، وما هو إلا بشر وليس بملك ، فقال لهم ربهم : سيعلمون بعد وقت قريب من الكذاب البطر ؟ وقد جعلنا ناقته فتنة واختبارا لهم ، فأمرناه أن يخبرهم بأن ماء البئر يقسم بينها وبينهم ، فلها يوم ولهم آخر ، فما ارتضَوْا هذا وقام فاسقهم قُدار وعقر الناقة فخرت صريعة ، فجازاهم الله فأرسل عليهم العذاب فصاروا كالهشيم الذى يتفتت حين بناء حظيرة الماشية .

الإيضاح

(كذبت ثمود بالنذر) أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقه ، وهم وإن كذبوا صالحا فحسب ، فإن تكذيبه تكذيب لهم جميعا ، لاتفاقهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد ومجىء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال :

(فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ؟) أى أنتبع واحدا من الدهماء ، لا من عِلْيَةِ

القوم ولا من أشرافهم ، وليس له ميزة عن امرئ منا بعلم ظاهر ولا ثروة وغنى تجعله يدّعى أن يكون الزعيم لنا .

ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم :

(إنا إذا لفى ضلال وسعر) أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوى ، وجانبنا الصواب ، وصرنا لامحالة إلى الجنون الذى لايرضى به عاقل لنفسه .

روى أن صالحا كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ، فعكسوا عليه مقالهم بعتوهم واستكبارهم فقالوا : إنا إن اتبعناك كنا كما تقول :

ثم بالغوا فى العتو والإنكار وتعجبوا من أمره ونسبوه إلى الاختلاق والكذب فقالوا :

(أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر) أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وأوتى النبوة وهو واحد منا ؟ وكيف اختصه الله بإنزال الشرائع عليه وهو ليس بملك مكرّم ؟ الحق إنه لكذاب متجبر ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا ، ويودّ أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به الشيطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له وتهديدا لقومه ووعيدا لهم فقال :

(سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ؟) أى سيعلمون عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوى — من الكذاب البطر الذى حمله بطره على ما فعل ، أصالح فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ؟

وقصارى ذلك — سيتبين لهم أنهم هم الكذابون الأشرون .

وأورد الكلام على طريق الإبهام للإشارة إلى أنه مما لايخفى ، جريا على أساليبهم كقوله تعالى آمرا رسوله أن يقول للمشركين : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله :

فلئن لقيتك خاليين لتعلمنْ أنّى وأيُّك فارسُ الأحزاب

ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال :

(إنا مرسلو الناقة فتنة لهم) أى إنا مخرجو الناقة من الهضْبة التى طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنة واختبارا لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه ويكفرون به ؟ .

(فارتقبهم واصطبر) أى فانتظر ماذا هم فاعلون ؟ وأبصر ماذا هم صانعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلك عدوك .

(ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) أى وأخبرهم أن ماء البئر التى لهم مقسوم بينهم و بين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعل القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ولا ترد الماء وهى عليه ، فصعب ذلك عليهم .

(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) أى ملّت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص من الناقة ، فنادوا قُدار بن سالف وكان أشقاهم ليعقرها وحضّوه على ذلك ، فلبّى طلبهم وتناولها بيده وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها ، فخرت صريعة .

ثم ذكر عقابهم الفظيع فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر ؟) قد سبق تفسير هذا .

ثم فصل هذا العذاب بقوله :

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) أى إنا أرسلنا جبريل فصاح بهم صيحة فصاروا كالحشيش البالى الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، وكأنهم هلكوا من أمد بعيد .

وقصارى ذلك — إنهم بادوا عن آخرهم ولم تبق منهم باقية ، وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) مر بيان هذا .

(٤) قصص قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠) .

شرح المفردات

حاصبا : أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصا ، قال فى الصحاح : الحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، والحَصَبَ (بفتحتين) ما تحصب به النار : أى ترمى ، وكل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به ، والسحر : السدس الأخير من الليل ، وقال الراغب : السحر والسُّحْرة : اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار ، والبطش : الأخذ الشديد بالعذاب ، فتماروا بالنذر : أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ، راودوه عن ضيفه : أى صرفوه عن رأيه فيهم فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا بهم ، فطمسنا أعينهم : أى فجعلناها عن الأبصار فلم ترشيئا ، بكرة : أى أول النهار ، مستقرّ : أى دائم بهم إلى أن يهلكوا .

المعنى الجملى

ذكر هنا تكذيب قوم لوط لنبيهم ومخالفتهم إياه ، واجتراحهم من السيئات مالم يسبقهم به أحد من العالمين ، بإتيانهم الذكران دون النساء ، ثم أردفه بذكر عذابهم بإرسال حجارة من سجيل عليهم إلا من آمن منهم ، فقد نجاهم بسحر ، وما أهلكهم إلا بعد أن أنذرهم عذابه على لسان رسوله فكذبوه .

الإيضاح

(كذبت قوم لوط بالنذر) أى كذبت قوم لوط بآيات الله التى أنذرهم بها .

ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب ونجاة من آمن منهم فقال :

(إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى إنا عاقبناهم بإرسال ريح تحمل الحصباء ، وما زالت بهم حتى دمرتهم ، إلا من آمن منهم ، فإنا أمرناهم بالخروج آخر الليل لينجوا من الهلاك .

ثم بين أن سبب إنجاء المؤمنين هو شكرانهم للنعمة فقال :

(نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر) أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا ، وهكذا نجزى من شكرنا على نعمتنا وأطاعنا فائتمر بأمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك إلا بعد أن أنذرهم عذابه وخوفهم بأسه فقال :

(ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) أى ولقد كانوا قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به .

ثم بين جُرمهم الذى استحقوا به العذاب فقال :

(ولقد راودوه عن ضيفه) أى طلبوا منه ضيوفه وهم الملائكة الذين جاءوا

فى صورة شباب مُرْد حسان ، محنة من الله لهم، إذ قد بعثت إليهم امرأته العجوز السوء فأعلمتهم بأضيافه ، فأقبلوا إليه يُهْرَعون من كل مكان ، فأغلق لوط عليهم الباب ، فجعلوا يعالجونه ليكسروه ، وهو يدافعهم و يمانعهم دون أضيافه و يقول لهم : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فقالوا له : لقد علمت مالنا فى بناتك من أرب ، و إنك لتعلم ما نريد ، فلما اشتد بينهم الصراع وأبوا إلا الدخول — طمس الله أبصارهم فلم يروا شيئا ، وهذا ماعناه سبحانه بقوله :

(فطمسنا أعينهم) فجعل بعضهم يجول فى بعض ولا يرون شيئا ، و يقولون : أين ضيوفك ؟ وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة هود .

(فذوقوا عذابى ونذر) أى وقلنا لهم على ألسنة ملائكتنا : ذوقوا هذا العذاب عذاب طمس الأعين بعد أن أنذرتكم على سوء أفعالكم وقبيح خلالكم .

ثم بين وقت مجىء العذاب فقال :

(ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أى ولقد نزل بهم العذاب وقت البكور وما زال مُلِحًّا عليهم حتى أخمدهم و بلغ غايته فى دمارهم وهلاكهم .

ثم حكى ماقيل لهم بعد التصبيح من جهته تعالى تشديدا للعذاب فقال :

(فذوقوا عذابى ونذر) أى فذوقوا جزاء أفعالكم من عذاب عاجل ، وما لزم من إنذاركم من عذاب آجل .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟) هذه الجملة القسمية وردت فى آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريرا لمضمون ماسبق من قوله : (ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر) وتنبيها إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادّكار ، كافية فى الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار .

وقد جاء هذا التكرير فيما سيأتى فى سورة الرحمن من قوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله فى سورة المرسلات : « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

وهذا كثير فى كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هامّ الأمور ، كقول مهلهل فى رثاء أخيه كليب حين قتل :

قرّبا مربط النعامة منّى لقحت حرب وائل عن حيالى
قرّبا مربط النعامة منّى شاب رأسى وأنكرتنى عيالى

وهى طويلة جارية على هذا : السنن ، والنعامة فرسه ، ولقحت : أى حملت .

(٥) قصص آل فرعون

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) .

شرح المفردات

النذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ؛ وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى صلى الله عليه وسلم ، عزيز : أى لا يغالب ولا يُغلب ، مقتدر : أى لا يعجزه شىء .

الإيضاح

(ولقد جاء آل فرعون النذر) أى وتالله لقد توالت عليهم الإنذارات ، وجاءتهم الآية تلو الآية فكذبوا بها .

ثم أبان مافعلوه على توالى النذر فقال :

(كذبوا بآياتنا كلها) أى كذبوا بأدلتنا و برهاناتنا التى أرسلناها إلى موسى ، وقد تقدم ذكرها فى سورة الأعراف .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) أى فعاقبناهم بكفرهم بالله ـ عقوبة مقتدر على مايشاء غير عاجز ولا ضعيف .

توبيخ قريش على كفرهم بربهم
وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) .

شرح المفردات

براءة : أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، والزبر : الكتب السماوية واحدها زبور ، يولون : أى يرجعون ، والدبر : أى الأدبار هاربين منهزمين ، والساعة : هى القيامة ، موعدهم : أى موعد عذابهم ، أدهى : أى أعظم داهية وهى الأمر الفظيع الذى لايهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، وأمرّ : أى أشد مرارة فى الذوق؛ والمراد الشدة والهول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون ، وفصّل ما أصيبوا به من عذاب الله الذى لامرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله ـ أعقب هذا بتنبيه كفار قريش إلى أنهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم فستحل بهم سنتنا ، ويحيق بهم من البلاء مثل ماحل بأضرابهم من المكذبين من قبلهم ، ولا يجدون منه محيصا ولا مهربا ، ثم خاطبهم خطاب إنكار

وتوبيخ فقال لهم : علام تتكلون ، وماذا تظنون ؟ أأنتم خير ممن سبقكم عددا وكثرة مال و بطشا وقوة ، أم لديكم صكّ من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتم من السيئات ؟ أم أنكم تظنون أنكم جمع كثير لايمكن أن ينال بسوء ، ولا تصل إلى أذاكم يدٌ مهما أوتيت من القوة ؟ كلا إن شيئا من هذا ليس بكائن ، وإنكم ستهزمون وتولون الأدبار فى الدنيا وسيحل بكم قضاء الله الذى لامفر منه ، وما سترونه فى الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالا ، فأفيقوا من غفلتكم ، وأنيبوا إلى ربكم ، عسى أن يرحمكم .

الإيضاح

(أكفاركم خير من أولئكم) أى أكفاركم يامعشر قريش خير من أولئكم الذين أحلت بهم نقمى من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابى ونقمتى ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى .

وتلخيص المعنى — ما كفاركم خير ممن سبقهم ، فهم ليسوا بأكثر منهم قوة ، ولا أوفر عددا ، ولا ألين شكيمة فى الكفر والعصيان والضلال والطغيان ، بل هم دونهم فى كل ذلك ، وقد أصاب من هم خير منهم ما أصابهم ، فكيف يطمعون فى المهرب من مثل ذلك ، فليثوبوا إلى رشدهم ، وليرجعوا عن غيّهم قبل أن يندموا ولات ساعة مندم .

ثم انتقل من توبيخهم الأول إلى توبيخ أشد منه فقال :

(أم لكم براءة فى الزبر) أى أم لكفاركم صك بالبراءة من تبعات ماتجترحون من السيئات ، وأن ربكم لن يعاقبكم على ماتدسّون به أنفسكم من الشرور والآثام ؟ فأنتم على هذا الصك تعتمدون ، وبهذا الوعد آمنون ، حقا إنكم لتطمعون فى غير مطمع ، وليس بين أيديكم ولا قُلامة ظُفُر من هذا — فعلام تتكلون ؟ وإلام تستندون ؟

(أم يقولون نحن جميع منتصر) أى أم هم يقولون نحن واثقون بشوكتنا ، فنحن قوم أمرنا مجتمع ، لانرام ولا نضام ، وإنا منصورون على من قصدنا بسوء ، أو أراد حربنا وتفريق جمعنا .

وجماع القول — إنه تعالى سدّ عليهم المسالك ، ونقض جميع المعاذير التى ربما تعللوا بها فى عدم تصديقهم بالرسول، وفى كفرهم بآيات ربهم، فقال لهم : لم لاتخافون أن يحل بكم مثل ماحل بمن قبلكم ؟ أ أنتم أقل كفرا وعنادا منهم ، فيكون ذلك سبب الأمن من حلول مثل عذابهم بكم ؟ أم أعطاكم الله براءة من عذابه ؟ أم أنتم أعز منهم جندا فأنتم تنتصرون على جند الله ؟

ثم رد عليهم مقالهم وأبان لهم أنهم يعيشون فى بحر من الأوهام ، وأن قضاء الله سيحل بهم ، وسيهزمون ويولون الأدبار متى جاء قضاؤه فقال :

(سيهزم الجمع ويولون الدبر) أى سيتفرق شملهم ويُغْلبون حين يلتقى جيشهم وجيش المؤمنين ، وقد صدق الله وعده ، فانهزموا وولوا الأدبار يوم بدر ، وكان هذا دليلا من دلائل النبوة ، فإن الآية نزلت بمكة ولم يكن له صلى الله عليه وسلم يومئذ جيش ، بل كان أتباعه مشرّدين فى الآفاق ، يلاقون العذاب من المشركين فى كل صوب ، حتى لقد قال عمر رضى الله عنه : لما نزلت لم أعلم ماهى ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع فعلمته — ثم استمر انهزامهم بعد .

روى البخارى عن ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قُبَّة له يوم بدر : أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تُعْبد بعد اليوم فى الأرض أبدا؛ فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يارسول الله ، ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع ويقول : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) » .

ثم بين أن هذا عذاب الدنيا وسيلاقون يوم القيامة ماهو أشد منه نكالا فقال :

(بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) أى إن ماسيلاقونه من العذاب فى الدنيا من الهزيمة والقتل والأسر - هين إذا قيس على ما سيلاقونه من العذاب فى الآخرة ، فإن ذا أشد وآلم ، فهو عذاب خالد دائم ، وسيأتى بعد وصف مافيه من فظاعة ونكر .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) .

شرح المفردات

المراد بالمجرمين : المشركون كما جاء فى قوله : « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ».
فى ضلال : أى فى الدنيا عن الحق ، وسعر : أى نيران واحدها سعير ، يسحبون : أى يجرّون ، سقر : اسم لجهنم ، ومسها : حرها ، بقدر : أى مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أمرنا : أى شأننا ، واحدة : أى كلمة واحدة وهى قوله (كن) كلمح البصر : أى فى اليسر والسرعة ، أشياعكم : أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ؛ وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، مدكر : أى متعظ ، فى الزبر : أى فى كتب الحفظة ، مستطر : أى مسطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله ، نهر : أى

فى نور وضياء ، فى مقعد صدق : أى فى مكان مرضى ، عند مليك مقتدر : أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب الأمم الماضية لرسلها كما كذبت قريش نبيها ، وأعقبه بذكر ما أصابهم فى الدنيا من العذاب والهوان — أردف ذلك بذكر ماسينالهم من النكال والوبال فى الآخرة ، فبين أنهم سيساقون على وجوههم إلى جهنم سوقا ، إهانة وتحقيرا لهم ، ويقال لهم حينئذ توبيخا وتعنيفا : ذوقوا عذاب النار وشديد حرها ، ثم أعقبه ببيان أن كل شىء فهو بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له من هلاك أمثالهم من الأمم التى كذبت رسلها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر ؛ ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون فى جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ويرون ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(إن المجرمين فى ضلال وسعر) أى إن المشركين بالله المكذبين لرسله — فى ضلال عن الصراط المستقيم ، وعماية عن الهدى فى الدنيا ، وعذاب أليم فى نار جهنم يوم القيامة .

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة والإذلال حينئذ فقال :

(يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) أى يعذبون ويهانون يوم يجرون على وجوههم فى النار ، ويقال لهم إيلاما وتعنيفا : ذوقوا حر النار وآلامها جزاء وفاقا لتكذيبكم رسل ربكم فى كل ماجاءوا به من الإنذار بهذا اليوم ، والتحذير مما يقع فيه للكافرين من العذاب ، والتبشير بما للمتقين فيه من ثواب .

ثم بين أن كل ما يوجد فى هذه الحياة فهو لا يحدث اتفاقا ، وإنما يحصل بقضاء الله وقدره فقال :

(إنا كل شىء خلقناه بقدر) أى إن كل كائن فى هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل ، وبحسب السنن التى وضعها فى الخليقة .

ونحو الآية قوله : « وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » وقوله : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى » وفى الحديث الصحيح « استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل : قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل لو أنى فعلت لكان كذا ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » وفى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفّت الأقلام ، وطُويت الصحف » .

وبعد أن بين نفاذ قدره فى خلقه بين نفاذ مشيئته فيهم فقال :

(وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إنا إذا أردنا أمرا قلنا له كن فإذا هو كائن ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بثانية ولا ثالثة ، ولله در القائل :

إذا أراد الله أمرا فإنما ... يقول له (كن) قولة فيكون

وهذا تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة فى إيجاد الخلق ، فهى كلمح البصر أو هى أقرب .

وجماع القول ـ ما أمرنا للشىء إذا أردنا إيجاده إلا قولة واحدة (كن) فيكون لا مراجعة فيها ولا ردّ ، فهى فى السرعة كلمح البصر لا إبطاء ولا تأخير .

ثم أنبههم على ما هم فيه من غفلة وعماية عن الحق بعد وضوحه فقال :

(ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر؟) أى ولقد أهلكنا أشباهكم يا معشر قريش من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا فى أمثالهم ، بشتى العقوبات ، ومختلف الوسائل « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم

مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » أفلا كان لكم فى ذلك مزدجر تعتبرون به فتنيبوا إلى ربكم وتُسْلِموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون ؟ .

ونحو الآية قوله : «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَايَشْتَهُونَ كَمَافُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ» .

ثم بين لهم أن كل أعمالهم محصاة عليهم وسيحاسبون على النقير والقطمير فقال :

(وكل شىء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر) أى وكل شىء تفعلونه ، فتدسون به أنفسكم من الكفر والمعاصى ، وتدنسونها به من الأرجاس والآثام فهو مقيد لدى الكرام الكاتبين كما قال : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» فما من صغيرة أو كبيرة إلا وهى مسطورة فى دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، فليحذروا أيها الناس ما أنتم عليه قادمون من الحساب العسير على الجليل والحقير ، يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالبا » .

وقيل :

لاتحقرنّ من الذنوب صغيرا إن الصغير غدا يعود كبيرا

إن الصغير وإن تقادم عهده عند الإله مسطّر تسطيرا

فاسأل هدايتك الإله فتهتدى فكفى بربك هاديا ونصيرا

وبعد أن ألمع إلى ما يصيب الكافرين من الإهانة فى ذلك اليوم ـ أردفه بما يناله المتقون من الكرامة عند ربهم ، وما يحظون به من الشرف والزلفى ، على حسب سنة القرآن من ذكر الثواب إثر العقاب والعكس بالعكس فقال :

(إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) أى إن الذين اتقوا عقاب ربهم بطاعته وأداء فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل فى السر والعلن ، يثيبهم بما عملوا جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور

من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لايخطر على قلب بشر ، كفاء مابذلوا من الصبر على شاقّ الطاعات ، وحرموا منه أنفسهم من اللذات ، كما قيل للربيع بن خَيْثم وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه : أتعبت نفسك ، فقال : راحتَها أطلُب .

كما ينالون الزلفى عند ربهم القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنّته فكل شىء تحت قبضته وسلطانه ، لايمانع ولا يغالب ، وهو العزيز الحكيم .

اللهم احشرنا فى زمرتهم واجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع المجيب ، ذو الطَّوْل العظيم .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

(١) الإخبار بقرب مجىء الساعة .

(٢) تكذيب المشركين للرسول وقولهم فى معجزاته : إنها سحر مفترى .

(٣) غفلتهم عما فى القرآن من الزواجر .

(٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم حتى يأتى قضاء الله فيهم .

(٥) إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسى الرءوس مسرعين كأنهم جراد منتشر .

(٦) قصص المكذبين من سالفى الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، وما لاقوه من الجزاء على تكذيبهم .

(٧) توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر .

(٨) ما يلاقونه من الجزاء فى الآخرة إهانة وتحقيرا لهم .

(٩) بيان أن كل ما فى الوجود فهو بقضاء الله وقدره .

(١٠) نفاذ مشيئة الله وسلطانه فى الكون .

(١١) بيان أنّ كل أعمال المرء فى كتاب قد خطه الكرام الكاتبون .

(١٢) ما أوتيه المتقون من الكرامة عند ربهم وما لهم من الزلفى لديه .